جامعة بغداد
كلية التربية للبنات
قسم التاريخ

المميزات الشخصية للمصريين المسلمين وازياؤهم التقليدية

ورشة تدريبية

ا. نبراس خليل إبراهيم

م. زهراء فاروق علوان

CamScanner

الفصل الأول

المميزات الشخصية للمصريين المسلمين وأزياؤهم التقليدية

شكّل المصريون من أصل عربي لقرون طويلة سكّان مصر ، فغيّروا في لغتها وقوانينها وعاداتها العامة وجعلوا من عاصمتها مَركزاً رئيسياً للثقافة العربية والفنون . وأخصّص القسم الأكبر من هذا الكتاب لوصف شعب مصر خاصة الطبقتين المتوسطة والغنية في العاصمة المصرية و « مَصر » (أو القاهرة) هي بآتفاق الآراء أولى المدائن العربية في عصرنا . فعادات سكانها وتقاليدهم مثيرة للإهتمام ، فهي تمازج للعادات والتقاليد السائدة عامةً في مدن شبه الجزيرة العربية ومنطقة شمالي أفريقيا بكاملها وسوريا وتركيا بدرجة كبيرة . وما من مكان أفضل من مصر لاكتساب معرفة شاملة لأكثر الطبقات تحضّراً بين العرب .

يتبيّن لنا من الإحصاءات المذكورة في مقدمة الكتاب أنّ المسلمين المصريين (أو المصريين العرب) يؤلفون نحو أربعة أخماس سكان العاصمة (الذين يقارب عددهم ٢٤٠ ألفاً) ، وسبعة أثمان سكان مصر بكاملها

يتحدّر المصريون المسلمون من قبائل وعائلات عربية متعددة سكنت مصر في فترات مختلفة خاصة بعد فتح عمرو أوّل حاكم عربي لهذه البلاد . لكنّ التزاوج بين الأقباط وبين المهتدين إلى الإسلام وتغيّر نمط الحياة من ترحال وتجوال إلى إستقرار وتحوّل المصريين إلى ساكني مدن أو مزارعين ، أحدث تغييراً كبيراً في طبعائهم الشخصية ميّزهم تمييزاً واضحاً عن سكان الجزيرة العربية . لذا، لا يمكن اعتبارهم في مرتبة أدنى من الأصالة عن سكّان

الجزيرة العربية نفسها الذين شاعت بينهم عادة استرقاء النساء الحبشيات بدلاً من اقترانهم بنساء بلادهم أو جعلهنّ إلى جانب زوجاتهم العربيات (وتلك عادة شائعة في أوساط الأغنياء) ، فيشابهون والحال هذه أهل الحبشة وأهل البداوة أو عرب الصحراء مشابهة كبيرة . تجدر الملاحظة إلى أنّ عبارة « عربي » تستخدم اليوم للإشارة إلى المناطق الناطقة باللغة العربية للدّلالة على البدو بصورة جماعية. كما تستخدم عبارة «عُربان» في الحديث عن قبيلة ما أو عن مجموعة صغيرة من الناس، وأمّا الفرد الواحد منهم فيُعرف «بالبدوي» . ونشير إلى أنّ التمايز بين القبائل في العاصمة وفي مدن مصر الأخرى بات شبه معدوم ، بينما يتجلّى واضحاً في أوساط الفلاحين الذين احتفظوا بالعديد من عادات البداوة يعرّف سكان القاهرة المسلمون أنفسهم «بالمَصْريين» و«أولاد مصر» (أو « أهل مصر ») و « أولاد البلد » ، ومفرد هذه العبارات : « مصري » و « ابن البلد » . وأكثر العبارات الثلاث شيوعاً في القاهرة هي عبارة : « ابن البلد »

أمّا أهل الأرياف فيُعرَفون بالفُلاحين . ويخلع الأتراك هذه التسمية على المصريين عامة إجحافاً فيعنون بها « السّاذجين » أو « المهرّجين » ، كما يصمونهم بصورة غير لائقة بـ « أهل فرعون » أو بـ « شعب فرعون »

يبلغ طول المصريين عامّة حوالي الخمس أقدام وثمانية إنشات أو تسعة إنشات ، وأمّا أطفالهم الذين هم مادون التاسعة و العاشرة فأوصالهم هزيلة متباعده وبطونهم منتفخة ، لكنّ شكلهم يأخذ بالتحسن كلّما كبروا ونموا ولما يبلغون أشدّهم ترتسم معالمهم في تناسق ، فترى رجالهم أقوياء شديدي البنية ونساءهم حسناوات ممتلئات الأجسام ، وكلاهما في اعتدال البدن دون وكس أو شطط. ولم أصادف أبداً بينهم أشخاصاً سمينين اللّهمّ إلاّ القليلين في العاصمة وفي مناطق أخرى بسبب حياة الخمول والكسل التي يحيونها . تكون سحنة الأشخاص القاطنين في القاهرة وبعض المناطق الريفية الشمالية والذين لا يتعرضون لأشعة الشمس كثيراً ضاربة إلى الصفرة وبشرتهم صافية ناعمة الملمس ، أمّا باقي السكان فبشرتهم داكنة قاسية ملامحها ؛ وتكون بشرة سكان

مصر الوسطى صفراء أكثر بعكس سكان المناطق الريفية الجنوبية الذين تكون بشرتهم سمراء تصبح داكنة في منطقة النوبة حيث الحرارة الأكثر ارتفاعاً . والرجل المصري المسلم بيضاوي الوجه ، ذو جبين معتدل نادراً ما يكون مرتفعاً مع بروزه عامة ، وعينين سوداوين غارقتين يلتمع فيهما بريق ساطع وأنف مستقيم مفلطح وفم مرسوم مع شفتين ممتلئتين تكشفان عن أسنان جميلة ولحية سوداء جعدة خفيفة . قليلون هم الأشخاص الذين ألتقيتهم من هذا العرق وكانت عيونهم رمادية ـ أو بالأحرى الأشخاص الذين من المفترض انتماؤهم إلى هذا العرق ؛ فأنا شخصياً أميل إلى الإعتقاد أنّ هؤلاء يتحدّرون من نسل نساء عربيات ورجال أتراك أو غرباء . وقد اعتاد الفلاحون بفعل تعرّضهم المستمر لأشعة الشمس إغلاق عيونهم نصفياً ، وهذه ميزة من ميزات البدو ، والملاحظ أنّ الكثيرين من المصريين يعانون من العمى في عين واحدة أو في العينين معاً يحلق المصري عادة ذقنه في الجزء من خدّه الواقع فوق فكه الأسفل وكذلك يحلق جزءاً بسيطاً أدنى شفته السفلى فيترك الشعيرات تنمو في الوسط تحتها . وهو بدلاً من حلق هذه الأجزاء ، يعمل على اقتلاع الشعر منها ، كما يقوم بحلق جزء من اللحية تحت الذقن مباشرة ؛ ونادرون هم الرجال المصريون الذين يحلقون ما بقي من لحاهم بينما يتركون شواربهم تنبت[1] فهم يطلقون للحاهم العنان فتتدلّى تحت الذقن شبراً (كما كانت العادة المتبعة أيام الرسول ﷺ) ، ولا يسمحون لشواربهم بالإستطالة فهي تزعجهم في مأكلهم ومشربهم ولا تنتشر بين الرجال المصريين عادة صبغ اللحية ، لأنّ اللحية الشائبة أكثر هيبة وإجلالاً يحلق المصريون ما بقي من شعرهم ويتركون خصلة صغيرة أعلى الرأس تُعرف « بالشُوشَة » . وترجع هذه العادة (الكلية الإنتشار بينهم تقريباً) ـ كما قيل لي ـ إلى خوف المسلمين من الوقوع بين أيدي

---

(١) قليلون هم الخدم وغيرهم الذين يحلقون لحاهم . إذ يعير الشرقيون لحاهم اهتماماً بالغاً وأحتراماً مهيباً ؛ فتراهم يقسمون بها ؛ وكذلك فكل من يرتكب عملاً مؤذياً يلحق العار بلحيته .

الكافرين فيذبحوهم ؛ إذ يعمد الكافر إلى قطع رأس ضحيّته ، فلّما لا يجد شعراً يمسك به الرأس ، يلجأ إلى يده النجسة لحمل الرأس ، فقد لا تكون اللحية طويلة بما فيه الكفاية يعرف المصريون عادات أخرى تجنباً للنجاسة لا حاجة لنا للتحدث عنها ويوشم العديد من الطبقات الدّنيا أيديهم وصدورهم بعلامات زرقاء ، وأحياناً يوشمون أيديهم وصدورهم كما النساء

يعتمد المصري المنتمي إلى الطبقتين المتوسطة أو الغنية في لباسه أوّلاً على سروال تحتاني طويل من القطن أو الكتّان يلفه في وسطه بواسطة حبل مبروم أو حزام مطرّزة أطرافه بخيوط حريرية ملونة ، ويغيب هذا السروال تحت الرداء الخارجي فيصل إلى دون مستوى الركبة قليلاً بيد أنّ العديد من العرب لا يرتدون السراويل الطويلة لأنّ الرّسول ﷺ حرّم ارتداءها يلي السروال القميص ذات الأكمام الواسعة والقميص من الكتّان الفضفاض المفتوح أو هو من القطن أو من الموسلين أو الحرير أو مزيج من الحرير والقطن المقلّم ، ويكون أبيض اللون بكامله يرتدي معظم المصريين خلال فصل الشتاء « الصُديرة » وهي كناية عن سترة من القماش أو من القطن أو الحرير المقلّم الملوّن لا أكمام لها ويلجأون فوق القميص والصّديرة أو فوق القميص وحده إلى سترة طويلة من القطن والحرير المقلم تُعرف « بالقَفْطان » أو « القُفْطان » يصل إلى مستوى الركبتين وتكون أكمامه طويلة تتجاوز أطراف الأصابع قليلاً وهو يُقسم في جزء منه فوق الرسغ أو وسط الساعد قليلاً ، فيمكن لمرتدي القفطان كشف يده أو إخفائها بالكم عند الضرورة ، إذ درج المصري على إخفاء يديه في حضور شخص رفيع المقام ويشدّ القفطان بحزام عبارة عن شال ملوّن أو ثوب طويل من الموسلين الأبيض المزيّن .

وأمّا الرداء الخارجي العادي فعبارة عن رداء طويل مختلفة ألوانه (يطلق عليه الأتراك إسم « الجُبّة » ويسميّه المصريون « جِبّه ») ، لا تصل أكمامه إلى مستوى الرّسغ تماماً ويرتدي بعضهم « البِنيش » وهو رداء من القماش أكمامه كأكمام القفطان وإن أكثر وسعاً

رجال من الطبقتين المتوسطة والغنية

« والبنيش » لباس المناسبات يرتديه المصريون فوق الرداء الخارجي ، بيد أن العديد يرتدونه عوضاً عن « الجِبّه » . وهناك رداء آخر يُعرَف « بالفَرَجِيّه » يشبه البنيش . وأكمام « الفرجيّه » طويلة ولكنها غير مشقوقه ، وهي حكرٌ على رجال الفكر والتعليم . ويتدثر المصري أيام الطقس البارد « بعباية » سوداء فضفاضة من الصوف ، يلّف رأسه بها أحياناً

يغطي العديد من المصريين رؤوسهم وأكتافهم شتاءاً بقماش من

الموسلين أو بشال آخر (كقماش العمامة) وتتألف العَمْرة (أو الراسية) من قلنسوة من القطن ملتصقة بالرأس يمكن تغييرها ثمّ يضعون الطربوش عبارة عن قبعة حمراء من القماش على قياس الرأس تماماً ذات شرّابة حريرية داكنة في أعلاها ؛ وشاع مؤخراً استعمال قماش من الموسلين الأبيض مطبَّع عامة أو شال من الكاشمير يُلفّ لفّاً حول الطربوش. ولا يرتدي المصري شال الكاشمير إلاّ في الطقس البارد . وقد يعمد بعضهم إلى ارتداء طربوشين أو أكثر الواحد فوق الآخر ؛ وأمّا الشريف (وهو من سلالة الرسول ﷺ) فيعتمر عمامة خضراء وله وحده حقّ هذا الإمتياز . كذلك وحده الشريف بين سائر المصريين يتدثّر برداء أخضر برّاق . والجوارب غير شائع استعمالها ، لكن بعض المصريين يرتدون جوارب قطنية أو صوفية في الطقس البارد . والحذاء من الجلد المراكشي السميك مستدقّ الرأس معقوف عند الأصابع وينتعل بعضهم حذاءاً داخلياً من الجلد المراكشي الأصفر الناعم يكون أخمصه من اللون نفسه ، وينزعون حذاءهم الخارجي قبل أن تطأ أقدامهم سجادة أو حصيراً ويحتفظون بحذائهم الداخلي ؛ ولهذا السبب يكون الحذاء الخارجي مقلوباً عند عقب القدم

يضع المصري في خنصر يده خاتماً منقوشاً (خاتم شعارات) من الفضة عادة يثبت فيه حجر العقيق الأحمر أو أي نوع من الأحجار الكريمة الأخرى ويحضر عليه إسم واضع الخاتم . ويصحب الإسم عبارة « عَبْدُه » (أي عبد الله) وأحياناً كلمات أخرى تعبّر عن إيمان صاحب الخاتم بالله وقد حرّم الرسول ﷺ لبس الذهب، لذا فنادراً ما يرتدي الرجال المسلمون خواتم ذهبية بعكس النساء اللواتي يقتنين الكثير من أدوات الزينة والتبرّج (كالخواتم والأساور). ويستخدم هذا الخاتم لمهر الرسائل والكتابات الأخرى ، وهو مُلزِم أكثر من أدوات الإمضاء الأخرى(*) وتستعمل لهذه الغاية كمية بسيطة من الحبر الذي

(*) تصديقاً لهذا الكلام ، فإنّ إعطاء الخاتم لشخص آخر ، أكبر دليل على الثقة الموضوعة فيه (انظر سفر التكوين ، ٤١/٤٢)

يمرَّر على أحد الأصابع ويُضغط به من ثمّ على الورق بعد أن يكون الشخص المستعمل الحبر قد لمس إصبعاً آخر بلسانه يرطّب به المكان المخصص للختم على الورق .

يمكن لكلّ شخص اقتناء مثل هذا الخاتم إن كانت حاله المادية تسمح له بذلك وإن كان مجرد خادم يتمنطق الناسخون المعتمدون ورجال الفكر وآخرين « بدواية » فضية أو نحاسية ، هي عبارة عن صندوق صغير في داخله أوعية مخصصة للحبر وللأقلام(٥) ويضع بعضهم بدلاً من هذا الصندوق أو علاوةً عليه ، سكيناً ذات غمد أو خنجر .

والبيبة (الغليون) رفيقة المصري أينما اتجه (إلاّ إذا توجّه إلى الجامع) يحملها له خادمه أحياناً رغم أن العادة الشائعة هي عدم تدخينه أثناء سيره أو امتطائه حصانه ويضع جزدان تبغه المحشو في صدره في قفطانه الواسع والمنثني في مقدمه ، إضافةً إلى منديل مشغول بخيوط حريرية ملونة ومطوي بكل عناية لكنّ العديد من أبناء الطبقة المتوسطة الرّاغبين في تجنب مظاهر الغنى يخفون هذا الرداء برداء آخر طويل أسود من القطن مشابه لرداء أبناء الطبقات الدنيا

يتّسم زي أبناء الطبقات الدنيا بالبساطة الكبيرة. فهم يرتدون - إن لم ينتموا إلى الطبقات المدقعة - سروالاً تحتانياً - « البري » - فوقه قميص فضفاض طويل أو عباءة من الكتان الأزرق أو القطن أو من الصوف البني - « الزعبوط » - مفتوح عند الرقبة حتّى الوسط تقريباً وذات أكمام واسعة. وقد يتزنّر بعض المصريين بحزام صوفي أبيض أو أحمر ويعتمرون عمامة مؤلفة من شال صوفي أبيض أو أحمر أو أصفر أو من القطن الخشن أو من الموسلين يُلف بها الطربوش فوق قبعة لبادية بنية اللون أو بيضاء . لكن بعضهم فقير جداً إلى درجة يكتفي معها باللبادة ، فلا يعتمر عمامة ولا يرتدي سروالاً أو يتعل حذاءاً ، مكتفياً بالقميص الأزرق أو البني أو بأسمال رثة بالية بينما يرتدي بعضهم الآخر صُديرة تحت

(٥) تلك عادة ترقى إلى عهد قديم (انظر نبوءة حزْقيال ، ٢/٩ ، ٣ ، ١١)

قميصه الأزرق ؛ وأمّا الخدم فيرتدون قميصاً أبيض وصديرة وقفطاناً أو جبّة أو الإثنين معاً ويغطّون كلّ هذه الثياب بالقميص الأزرق تُرفع أكمام هذا القميص الفضفاضة بواسطة خيوط تلفّ الكتفين وتتقاطع من الخلف حيث تتعاقص في شكل عقدة وهذا هو عامةً زي الخدم (خاصة سائسي الخيول) الذين يزدان بأشرطة قرمزية اللون أو هي من الحرير الأزرق الداكن يعمد العديد من أبناء الطبقات الدنيا إلى ارتداء « العباية » التي عرّجتُ على وصفها آنفاً والتي تكون

رجال الطبقة الفقيرة